أويديبوس ملكاً: الرجل الأول والمدينة الأولى

د/ ياسر عبد الرحمن إبراهيم على الليثى*

الملخص

يهدف البحث الحالى الى تبيان بعض الملامح السياسية التى كان من الممكن للمشاهد الأثينى فى القرن الخامس ق.م. أن يلتفت إليها فى أشهر تراجيديات سوفوكليس: "أويديبوس ملكاً". و أثينا بوصفها "المدينة الأولى" لم تكن لتغيب عن وعى سوفوكليس و نظارته فى عمل من هذا القبيل، يبحث فى هوية العظماء وسقوط "الرجل الأول" فى مجتمع ذى اشكالية سياسية بالدرجة الأولى. ومن خلال تساؤلات عن علاقة سوفوكليس ببركليز و مذهب كليهما الفكرى، وعن حجم المعارضة السياسية التى كانت تلقاها طموحات بركليز، نحاول أن نلقى الضوء على الكيفية التى كان للمشاهد الأثينى ان يتلقى بها عملاً هذا. ولما كان الربط بين مصير أثينا السياسى و مصير أويديبوس فى العمل قد أغرى بعض الباحثين، فإن بحثنا يحاول أن يتخذ من استقراء النص أساساً لتأويله، بحيث لا يتم عزل نص "أويديبوس ملكاً" ، بل إدماجه فى سياق فكرى يختص به هذا الكاتب ورجل الدولة.

* مدرس بقسم الدراسات اليونانية واللاتينية -كلية الآداب - جامعة المنصورة

Oedipus Tyrannus: The First Man, the First Polis

Abstract

This study focuses on some political aspects that may have grasped the attention of the Athenian audience in 5th century Athens, concerning one of Sophocles' most famous tragedies, namely *Oedipus Tyrannus*. It is almost unlikely that Athens as a "first polis" was out of Sophocles' tragic speculation or far from the grasp of his audience, in a work which explores the identity of greatness and the fall of "the first man" in a society facing a vital political crisis. Inquiring about the terms that may have linked Sophocles to Pericles and their supposed ideological world, the political opposition that Periclean ambition was to face, we try to shed some light on the way the Athenian audience may have received such a work. Forasmuch as the political career of Athens and that of Oedipus were matched together by some scholars, the present hermeneutical study bases upon reading the text, trying not to cut it off, but rather to embody it in an ideological context that can be traced, one that belongs to the playwright and the statesman at the same time.

ربما لم يحظ عمل درامى من نتاج الأدب الإغريقى الكلاسيكى بما حظيت به مسرحية "أوديبوس ملكاً" من الشهرة، فبينما نظّر بها أرسطو لكتابه عن الشعر بوصفها نموذجاً يحتذى للفن التراجيدى، قدح فيها الباحثون المحدثون زناد فكرهم بالنقد و التحليل. و الناظر إلى تاريخ النقد الحديث فى فصله المتعلق بهذا العمل يجد أن ثمة تركيز على فكرة الربط بين تراجيديا البطل أوديب و تراجيديا أثينا. لكن الربط بين النص الدرامى و السياق التاريخى أمر لازال يجلب من الجدل أكثر مما ينتج من الاتفاق، و لعل الجزء الأكبر من أهمية العمل يكمن فى هذا الطرح.

ولما كنت قد عالجت فى اطروحتى لدرجة الدكتوراه الأبعاد السياسية فى مسرح سوفوكليس من خلال أعماله الثلاثة "إياس" و "انتيجونى" و "فيلوكتيتيس"، ثم نشرت بحثاً آخراً تعرضت فيه لعمله "أوديبوس فى كولونوس" من حيث ربطه بواقع أثينا المنهزمة[1]، فقد بقيت "أوديبوس ملكاً" بما أثارت و لا زالت تثير من جدل تستولى على اهتمامى البحثى. ويهدف هذا البحث إلى تبيان أمرين هامين :

أولاً : أهمية وضع النص الدرامى فى بيئته الأولى و بين مستقبليه الأصليين فى محاولة لاستقرائه فى سياق العلاقة التفاعلية بين الكاتب و الجمهور.

ثانياً: تأويل العمل فى إطار هذه العلاقة الافتراضية بالاستناد إلى دلالاته المحلية وربطه بلحظته التاريخية[2].

ولعله من المفيد أن أشير إلى أننى سأتبع فى هذه الدراسة منهج المركزية المسرحية، ومؤداه التركيز على اللحظة التاريخية للعمل وبيئته التى استقبلته للمرة الأولى. و يستوجب هذا المنهج افتراض تفاصيل لعملية تفاعل بديهية كان من شأنها أن تقع بين الكاتب و جمهوره، فالمشاهد الاثينى فى القرن الخامس قبل الميلاد هو المقياس الحقيقى و معيار النقد الرئيسى.

و سوفوكليس بشكل عام كاتب يستعصى على الفهم المباشر، بمعنى أن التعميم فى محاولة الحكم على منحاه الفكرى قد ينتج عنه انحراف بنصوص أعماله فرادى – عن محليتها – إلى تنظيرات تتصل بعالمية الفكر الإنسانى أكثر مما ترتبط بالنقد الأدبى الإغريقى. فما ينطبق على الأعمال الخمسة التى أكمل استقرائى لأبعادها السياسية بهذا البحث قد لا ينطبق على عمليه الآخرين "التراخينيات" و "إلكترا" بمحتواهما الاجتماعى[3].

تؤرخ المسرحية فى مطلع العقد الثالث من القرن الخامس قبل الميلاد، وعلى وجه التحديد فى عام 428 ق.م. وهو تأريخ تقريبى يستند أساساً إلى نصها الذى يفتتحه سوفوكليس بأبيات تتعلق بوباء استشرى بين سكان مدينة أوديبوس. أعطى وصف الشاعر لتفاصيل هذا الوباء الدلالة على ربطه بالوباء التاريخى الذى تعرضت له أثينا نهاية العقد الرابع من القرن ذاته.

ولو أننا ارتكنا إلى هذا الحدث وصحت أركان التأريخ لكان من الطبيعى أن نفترض أن ما نخلص إليه نحن اليوم من عملية الجمع بين ما هو على المسرح وما هو على ارض الواقع – من خلال ربط النص المسرحى بالتاريخ (سوفوكليس وثوكيديديس) – إنما كان من البديهى بالنسبة للمشاهد الاثينى أن يخلص إليه رابطاً بين الحدث التراجيدى و الحادث التاريخى (إحالة النص على الواقع).

وعملية الإحالة هذه قد فطن إليها أرسطو فى كتابه عن الشعر التراجيدى جاعلاً منها أداة لإحداث التطهر أو ما يعرف بالـــ κάθαρσις. و المسألة لا تقتصر على الجمهور، فالكاتب نفسه ونصه وليدى عصر و أفكار سائدة، وما إن يخرج النص من يد الكاتب تنتهي ولايته عليه، بمعنى أنه يصير ملكاً لكل مستقبلٍ له كى يُعمل فيه عقله و فكره ويؤوله كيف يشاء. وكلما زادت مساحة المباشرة فى النص كلما حصل الكاتب على عدد أكثر من المتفقين على تأويل بعينه. أما إن كانت اللا مباشرة سلاح الكاتب فإنه قد سلّح مستقبليه – فى حالة من اللا وعى – بحق الاختلاف فى تأويل النص كل حسب خلفيته و قراءته. ولعل بإمكاننا أن نزعم أن سوفوكليس ينتمى إلى الصنف الثانى من الكتاب.

و"أوديبوس ملكاً" نص يحتمل الأمرين معاً، فهو – كالغالب من بقية أعمال سوفوكليس – قد خضع لقراءات مباشرة كثيرة، بينما حاول عدد آخر من الباحثين تأويله على نحو يقرأ خارجه أكثر مما يقرأ داخله. و فى الحالتين فإن النص – كونه المادة الوحيدة بين أيدينا – قد يكون ضحية إما لتبسيط مفرط أو لإفراط مبالغ فيه.

لقد كانت أثينا تمر بأزمة سياسية عصيبة زمان عرض المسرحية، فبعد وفاة رجلها الأول وملهم العظمة الأثينية بركليز لابد وأن الحالة السياسية شهدت منحنى خطيراً بعد خلو الساحة من عبقرية سياسية كتلك التى كان بركليز يتمتع بها. ولما كان من شأن "المدينة الأولى" أن تواصل مسيرتها القيادية التى سعت لها منذ مطالع القرن الخامس، فقد بات من البديهي طرح تساؤلات عمن هو أولى بقيادة أثينا مقارنة بفترة بركليز. وفى المسرحية فإننا نجد تساؤلاً عميقاً عن جدوى حكم أوديبوس لطيبة وكيف أن شعبه الذى يرى فى شخصه النجاة سيكتشف فيما بعد أنه هو ذاته مصدر الشقاء والمعاناة. و هذا التناقض بين ما هو كائن وما هو كامن يعد خاصية هامة فى تراجيديا سوفوكليس.

ولعل الربط بين وباء أثينا التاريخى ووباء طيبة التراجيدى يكتسب أهمية تتعدى حدود تأريخ النص الى فهمه و تأويله. فالوباء فى العمل هو نقطة بداية، تتتابع وراءه الأحداث كاشفة عن علته و أسبابه. والاشارات اليه فى نص العمل – بعد المقدمة التى يتلوها الكاهن واصفاً تفاصيل الفاجعة – لا تتكرر كثيراً (قارن

الابيات 22-30، 58-67، 635). فسرعان ما ينتقل بنا سوفوكليس الى ما هو أهم، الا وهو حالة الدنس μίασμα التى تقف وراء هذا الوباء λοιμός. وهذا الربط لا يستند فقط إلى أسانيد شكلية، فهذا الوباء المسرحى متعلق بداهة بنبوءة لأبوللو، الذى كانت نبوئته الدلفية التاريخية تعد بدعم الإسبرطيين فى الحرب[4]. ومهما تباينت الأراء حيال مسألة الربط بين الوبائين – التاريخى و التراجيدى – فإن مسألة تذكر المشاهدين لوباء أثينا التاريخى أمر يصح افتراضه. ولدينا شاهد تاريخى لعمل تراجيدى آخر كان له أثر عظيم فى تذكير الأثينيين بمآسيهم التاريخية فى الماضى القريب، و هو "احتلال ميليتوس" *Μιλήτου Ἅλωσις* لفرينيخوس، والذى غُرِّم الشاعر بسببه بغرامة مالية و مُنع عرضه لما سببه من مآسٍ و نحيب لمشاهديه مذكِّراً إياهم بتلك المأساة[5]. كما أن عقوبة النفى و اعتزال مجتمع المدينة وعدم المشاركة فى الطقوس الدينية والأضاحى التى يقرها العمل ليست بالأمر الجديد على المشاهد الأثينى، فكل هذا مقرر فى قوانين دراكون الأتيكية[6].

وبتوالى الأحداث سريعاً يتمحور العمل حول شخص أويديبوس، وكأن المدينة ومصيرها قد تعلقا بشخصه و قدره[7]. و المشاهد هنا – بفرض أنه يعرف مجمل الأسطورة مسبقاً – لا يفقد حماسة التشوق لمتابعة تطور الأحداث، لأن الشاعر يقدم له تفاصيل تفوضه حق ربطها بواقع معاصر. فالجوقة التى يخاطب أويديبوس أفرادها فى بداية العمل وكأنهم أبناؤه (قارن 1، 58، 142) تتكون فى الواقع من سكان المدينة وشعبها (Κάδμου λαὸν (144), Θήβης ἔνοικοι (1524))[8]. وأويديبوس رجل دولة من الطراز الأول، وهو تجسيد حى للسلطة[9]، تتطلع اليه الأنظار على أنه المنقذ σωτήρας (47). وأهم من ذلك أنه يُشار إليه بمصطلح هو أقرب ما يكون لما عرفه الأثينيون فى نمط حكمهم المعاصر على أنه "رجل المدينة الأول" ἀνδρῶν δὲ πρῶτον (33)، وهو المصطلح ذاته الذى يستخدمه ثوكيديديس معرفاً الديموقراطية الأثينية إبان فترة حكم رجلها الأول بركليز:

«ἐγίγνετό τε λόγῳ μὲν δημοκρατία,

ἔργῳ δὲ ὑπὸ τοῦ πρώτου ἀνδρὸς ἀρχή.»[10].

ورغم إغراءات التناص intertextuality الواضح بين سوفوكليس و ثوكيديديس، فإن منهجية تأويل عمل تراجيدى لابد و أن تأخذ فى الاعتبار شمولية النص الذى لايقف عند حدود التاريخ فقط، بل قد يتعداها الى موسوعية القيم الإنسانية و الأخلاق. لكن حرية المشاهد – وهو كما أكدنا سلفاً "مالك النص" بعد خروجه إلى ساحة العرض – فى إعادة صياغة هذا النص من خلال محليته locality بما يجعله ملبياً لحاجاته الشعورية عامة وأولها واقعه المعاصر تفرض نفسها.

بينما يبدو أويديبوس فى بداية العمل فى صورة حاكم يتمتع بالحكمة البالغة – التى نال بها ناصية الحكم فى طيبة – فإنه سرعان ما يفقد هذه الصفة. يظهر لنا من الأبيات الأولى للعمل شخصاً أخراً متحلياً بخاصية هامة للصلف و الطغيان، من شدة الثقة بالنفس و الذكاء البشرى إلى سرعة الغضب و كيل الاتهام بالخيانة والرشوة للمنافسين و المنتقدين دونما دليل. ويركز سوفوكليس على إظهار هذه الخاصية بوضوح من خلال تواتر الأبيات على لسان بطله بالاتهامات ضد تيريسياس و كريون (الأبيات 330-331، 337-338، 345-349، 380-385، 540 وما بعده)[11].

ومن العجيب أن سرد بلوتارخوس فى سيرته عن بركليز – و ما فيه من عزوفه فترة الشباب عن معترك السياسة، لشبهه الشديد بالطاغية بيزيستراتوس، ثم دخوله هذا المعترك بوصفه "سفينة سلامينية" كبيرة كمنقذٍ للناس فى حالات المحن الكبرى، ثم سيطرته على شئون المدينة بعد ابعاد كيمون خارجها بناءً على إتفاق كان لامرأة هى إلبينيكى أخت كيمون اليد العليا فيه[12]– يطرح الكثير مما قد يغرى بعقد مقارنة مع حياة أويديبوس السوفوكلى. والمتابع لسيرة بركليز أيضاً يرى كيف أنه هو الآخر قد تملك قلوب الأثينيين بإغداق النعم عليهم و ثقتهم فى ذكائه و شرفه و إمكاناته البشرية التى تفوق أنداده، ثم تحول شيئاً فشيئاً إلى رجلٍ يملك فى يده مصير مدينته يفعل بها ما يشاء حتى ثارت مخاوف من أنه قد يصير إلى حكم الطغيان[13].

ولقد شهدت الفترة التالية على ظهور الوباء فى أثينا وغزو القوات البلوبينيسية الثان للأراض الأتيكية انتقادات حادة لشخص بركليز. ويبدو أن حالة من النفور كانت قد تملكت من نفوس المواطنين الأثينيين حيال سياسته العسكرية، إلى حد وصل إلى إتهامه بالمسئولية عن الوباء ومآسى بنى وطنه الآخرين. وخطبته الجنائزية الشهيرة تأتى فى إطار الرد على هذه الإنتقادات و تهدئة النفوس الثائرة ضده و هو ما يوضحه ثوكيديديس:

"وبعد الغزو الثانى للبليبونيسيين تملك اليأس من نفوس الأثينيين. فها هى أرضهم قد عمَّها الخراب مرتين، و ثقلت عليهم أهوال الحرب و الطاعون. فبدءوا يلقون باللائمة على شخص بركليز ، بوصفه مؤجج الحرب ومسبب كل مآسيهم"[14]

ولعلنا نلحظ فى خطبته هذه و رده على اتهامات مواطنيه له روح الاعتزاز بالذكاء و الثقة فى النفس و القدرات البشرية التى يتفوق بها على الآخرين، بل ويلمح إلى اتهامات بالرشوة هو أبعد من يكون عنها:

"إنه لمن المؤكد أن على كل فردٍ أن يهب للدفاع عن وطنه، على خلاف ما أنتم

عليه من الانهماك فى أحزانكم الشخصية و العزوف عن كل معان الأمن العام، وأن تلقوا علىَّ باللائمة لمشورتى بالحرب وعلى أنفسكم للتصويت لها. و رغم ذلك فلو كنتم ساخطين على شخصى، فإنكم تفعلون هذا مع شخصٍ – على حد اعتقادى – لا يفوقه أحد فى معرفة ما هو واجب اتباعه من الأمور، و لا فى القدرة على بيانها، و علاوة على ذلك فإنه ليس وطنيا فحسب بل وأشرف من أن تناله الرشوة. إن رجلاً بهذه المعرفة دونه موهبة البيان قد لا تكون لديه فكرة عن المسألة برمتها، لو أنه كان يتمتع بكلتا الصفتين لكنه يفتقد الى حب الوطن، فهو حينها لا يعدو أن يكون مجرد مدعٍ مغرض لمصالحها، وبينما لايرقى فوق شبهة الرشوة، يصبح كل شئ عرضة للبيع"[15].

هذه الثقة بالعقل البشرى و ذكاء الإنسان و تفوقه لم تكن وليدة الموقف عند بركليز، فمن المعروف أنه كان من تلاميذ و أصدقاء الفيلسوف أناكساغوراس، الذى كان له بالغ الأثر فى تكوين شخصيته من بين كل أولئك المفكرين الذين اختلط بهم فى عصره. ويبدو أن فلسفة أناكساغوراس – بتأكيدها على قيمة العقل νοὺς فى مقابل الحظ τύχη و الضرورة ἀνάγκη – قد تملكت من نفس بركليز و طبَّقها فيما هو آتٍ من حياته، وهو الأمر الذى يؤكده بلوتارخوس فى سيرته[16].

كل هذه التقابلات فى الواقع التاريخى بين واقعة الوباء و إعتبار بركليز سبباً فى كل ما ألمَّ بالأثينيين من مصائب و أنه هو رجل أثينا الأول وبين مثيلتها فى النص السوفوكلى تصعب مهمة أنصار نظرية الفن للفن[17]. فالمواطن الأثينى الذى كان بالأمس يعتبر بركليز رجل أثينا الأول سبباً فى كل مآسيها هو نفسه المشاهد الذى يرى أويديبوس رجل طيبة الأول و منقذها الملهم ينجلى عنه الستار ليكون هو الآخر سبباً لكل ما ألم بالمدينة من وبال.

ولو كان التاريخ نفسه قد ترك لنا من أثاره ما يشجع البعض على افتراض أن سوفوكليس كان من أنصار و مريدى بركليز، ونقصد توليه منصب القائد العسكرى στρατηγός مع بركليز فى حملة ساموس سنة 439/440 ق.م. ، فهناك ما قد يثبت عكس ذلك أيضاً.[18]

فكيف لمفكرٍ على غرار سوفوكليس – وكل ما فى أعماله يكبح جماح الغرور البشرى و يرسو بكل عظمة الإنسان على محدودية معرفته و يحذر من تبعات تخطيها – أن يجتمع فى ذات البوتقة الفكرية بقائد عسكرى وسياسى على غرار بركليز و كل ما فى تاريخه طموح هائل و سعى حثيث لبلوغ قمم المجد لشخصه ولمدينته مهما بلغ الثمن؟ إن الرد بإيجاب عن هذا السؤال ليستلزم أن نمحو من نص "أويديبوس ملكا" الأبيات:

Ὕβρις φυτεύει τύραννον·ὕβρις, εἰ
πολλῶν ὑπερπλησθῇ μάταν
ἃ μὴ 'πίκαιρα μηδὲ συμφέροντα,
ἀκρότατα γεῖσ' ἀναβᾶσ'
<ἄφαρ> ἀπότομον ὤρουσεν εἰς ἀνάγκαν,
ἔνθ' οὐ ποδὶ χρησίμῳ
χρῆται[19].

إن الصلف ليلد الطاغية. الصلف
الذى إن أطلق له العنان دونما رادع
بأمور الترف التى لا تلائم الوقت عديمة الفائدة
ما إن يصل إلى ذروة القمم
فإنه ساقط لا محالة مجبرٌ من حافة الهاوية
هناك حيث لا تجديه قدم

أو أن نغض الطرف عن كلمات بلوتارخوس التى يروى فيها ما كان معارضى سياسة بركليز يكيلون من نقدٍ على ما هو ماضٍ فيه من إنفاقٍ و تبذير و مبالغة فى تزيين أثينا و تمجيدها حتى صارت كامرأةٍ لعوب، وكان هذا من أموال الحلفاء الإغريق لدعم حلف ديلوس الذى تتزعمه المدينة الأولى أثينا. و الملفت فى الأمر أن الحديث يدورهنا كذلك فى إطار الصلف ὕβρις:

"ويبدو بلا شك أن اليونان صارت عرضة للصلف و الطغيان على نحو جلى، وهى ترانا نهدر أموالها المبذولة غصباً من أجل الحرب كيما نكسو و نطلى مدينتنا ذهباً، التى صارت كامرأةٍ لعوب ما انفكت تضيف إلى مقتنياتها من الأحجار الكريمة و التماثيل والمعابد ما كلفته آلاف التالنتات" [20]

وما يذكره كذلك عما صارت إليه قوة بركليز، مشيراً لكلمات ثوكيديديس وشعراء الملهاة، التى وصلت الى حد الخشية من انقلابه الى حكم الطاغية و نعته واتباعه بمصطلح "البيزيستراتيون الجدد" ، وحثه على القسم بألا يُنصِّب من نفسه طاغية على أثينا، ذلك أن علو شأنه لم يكن ليلائم حكم الديموقراطية:

" ويروى ثوكيديديس فى وضوح عما كان له من القوة و النفوذ، و يكشف عن هذا شعراء الملهاة من خلال وشاياتهم، مطلقين لقب البيزيستراتيين الجدد عليه و على من والاه، حاثين إياه على أن يقطع على نفسه عهداً بألا يصير طاغية، بدعوى أن فى نفوذه ما يتعارض ولا ينسجم مع نظام ديموقراطى" [21] .

وبينما يرى Knox شخص أويديبوس على أنه "تصوير رمزى لأثينا بركليز، الرجل الطاغية الذى يرمز للمدينة الطاغية"[22]، ويصرح آخر بأن جمهور مشاهدى أويديبوس قد شاهدوا كذلك مأساة القوة الأثينية على خشبة المسرح[23]، فإن واحداً من الباحثين المبرزين فى دراسة الخلفية السياسية للأعمال التراجيدية يقرر: "يبدو من غير المحتمل أن يكون أويديبوس بأى شكل مباشر رمزاً لأثينا (أو بركليز)، لكن الجوقة حين تغنى "إن الصلف ليلد الطاغية ... (872)، فإنه لا يمكن أن يكون الأمر من قبيل الصدفة البحتة حين يستخدم بركليز اللغة ذاتها فى محاولته اليائسة الأخيرة لأن يرد للمواطنين ثقتهم الثابتة التى كانوا يتحلون بها فى سالف الأيام، إنه يخاطبهم قائلاً *أنكم تتولون أمر الإمبراطورية بوصفكم قوة طاغية، وهو الأمر الذى ربما يبدو وكأنه لا عدل فيه، لكنه من الخطورة بمكان أن نتخلى عنه الآن"* (ثوكيديديس 2.63.2) ... *"إن الحلفاء يحصلون على ما يسددون ثمنه"* ([بلوتارخوس] – بركليز 12.3) ... لعل سوفوكليس كان يحذر صديقه من مخاطر هذا النوع من الصلف الالحادى غير المسبوق"[24].

إن متابعة السياق الفكرى لسوفوكليس وتطوره من أعماله الباقية المبكرة "أياس" و"أويديبوس ملكاً" و"أنتيجونى" إلى تلك المتأخرة "فيلوكتيتيس" و"أويديبوس فى كولونوس" لتقودنا إلى نتائج هامة. فالشاعر الذى تزامن صعود نجمه الدرامى حتى وفاته مع بزوغ شمس العظمة الأثينية ثم غروبها فى أواخر القرن الخامس ق.م. رسم بتطور فكره الدرامى خطاً بيانياً لهذه العلاقة. والفارق جلىّ بين كتاباته الأولى و مافيها من اصطدام الإنسان وقوانينه الوضعية بتلك الالهية اللا مكتوبة ἄγραπτα θεῶν νόμιμα من جهة وبين ما يسود أعماله الأخيرة من حالات التصالح مع المجتمع و السماح بالتدخل الالهى deus ex machina فى "فيلوكتيتيس"، أو مع الذات والارادة الالهية والجنوح الى عالم المثال فى "أويديبوس فى كولونوس"[25]. كل هذا يفصح لنا عن عبقرية المفكر سوفوكليس أكثر مما يعطينا مجرد مثالٍ لحرفية كاتب تراجيدى. ومصير أثينا التاريخى موازٍ لتطور فكر سوفوكليس التراجيدى، فعظمتها وسعيها للحفاظ على كيانها بوصفها المدينة الأولى ساقها فى أحيان كثيرة إلى الاصطدام بسياج المحظور الالهى، بل وتخطيه فى حالة قد يصدق توصيفها بالـــ ὕβρις السياسى. ولئن كان سوفوكليس قد آثر الركون إلى الرمز فى أعماله، فإن يوريبيديس فى "الطروايات" على سبيل المثال كان أكثر

مباشرة منه. وما يرويه ثوكيديديس فى تاريخه عن حروب البيليبونيس وبلوتارخوس فى سيرة بيريكليز عن مسيرة أثينا نحو استكمال العظمة والمجد، وما زامن ذلك من مذابح فى ميليتوس وميتيلينى وسعى حثيث نحو تحجيم المارد الاسبرطى الجامح الذى كان يهدد هذه المسيرة، ثم القضاء على كل صوت معارض فى الداخل يدعو الى العقلانية و الاعتدال ومحاسبة الذات – بدءاً باعدام سقراط ومروراً بنفى ثيميستوكليس إلى نفى غريم بيريكليز السياسى ثوكيديديس بن ميليسياس، إلى الوقوع فى مستنقع الحملة الصقلية عام 413 ق.م. و التى كانت بمثابة الحافة التى سقطت منها أثينا إلى هاوية الهزيمة النهائية – كل هذا يرسم لنا صورة واضحة عن تراجيديا أثينا التاريخية التى هى أقرب ما تكون إلى تراجيديات سوفوكليس[26].

إن سوفوكليس – وهو بما لا يدع مجالاً للشك وطنى أثينى من الدرجة الأولى – طرح أمام أعين بنى وطنه من الأثينيين جمود فكر أياس و روحه البطولية التى لا يثنيها إلا الموت بشرف، ثم طغيان كريون فى أنتيجونى و تحديه الناموس الالهى وتغليبه للقوانين الوضعية إلى أن سقط فى غياهب العدم، ثم عظمة أويديبوس الملك و حنكته البشرية التى ساقته إلى أن اكتشف فى النهاية أن بلوغ قمة الهرم هو أقرب ما يكون فى أى لحظة من الانحطاط إلى سفحه. لكن الأمر يبدو و كأن كل هذا لم يلق أذناً صاغية تلتفت إلى أن هذه الشخوص كلها إنما هى بشكل او آخر لرجال سياسة، فى علاقة تداخل تامة مع مجتمعاتهم و مدنهم، يقررون و يتحملون تبعات قراراتهم[27]. و لما صارت الأمور على النحو الذى صارت إليه إبان نهاية حياة سوفوكليس، من تهديد للكيان الديموقراطى الأثينى و أصبحت المدينة التى كان الجميع يخشاها أحوج ما تكون لمن يذب عنها أخطار الهزيمة، وصعد نجم الديماجوجيين من أمثال ألكيبياديس الذى دفع بزهرة شبابها إلى حماقة عسكرية فى صقلية، كان سوفوكليس يرى رأى العين سقوط أثينا الوشيك فى نهاية مماثلة لإحدى تراجيدياته الأولى عن سقوط العظماء.

هذه المرحلة هى التى أنتجت عمله "فيلوكتيتيس"، الذى نستشف فيه دعوة للجندى المكلوم فاقد الثقة فى قادته و معسول كلام الساسة الخطباء كيما يعود إلى ساحة النضال للذود عما بقى من عظمة و مجد. وأغلب الظن أن دعوته هذه لم تلق هى الأخرى قبولاً لقسوة الظرف التاريخى و أثر ما تركته الهزيمة النكراء فى صقلية من مرارة و فقدان ثقة فى ساسة المدينة[28]. وما كان من الشاعر إلا أن ركن فى آخر أعماله "أويديبوس فى كولونوس" إلى عالم المثال، فقدم لمواطنيه عملاً يفتش فيه عن الخلاص فى عالم الآلهة، فيصير أويديبوس الملك قديساً تطهر من الآثام ليصبح المنقذ الجديد الذى سيواريه ثرى أثينا علّها تتطهر هى الأخرى من

لعنة السقوط التاريخى. وكل ما فى العمل من اعتدال ثيسيوس ونموذجيته السياسية التى هى أبعد ما تكون عن الروح البطولية، إلى عبق القدسية ومثالية الانسان الاثينى التى تملأ أجواء العمل، هو أمر يوحى برغبة للشاعر وأمل أخير يحدوه فى يد الهية تنتشل أثينا من نكسة الهزيمة. إن المسافة التاريخية التى تفصل "أياس" عن "أويديبوس فى كولونوس" تصنع – بل و تفسر – الفارق التراجيدى بين شخوص تكررت فى أعمال الشاعر على نحو مخالف تماماً، مثل أوديسيوس فى "أياس" وفى "فيلوكتيتيس"، وكريون فى "أنتيجونى" وفى "أويديبوس ملكاً"، ثم أويديبوس فى "أويديبوس ملكاً" وفى "أويديبوس فى كولونوس".

إن كانت عبقرية سقراط اجمالاً تتمثل فى أنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض فإن عبقرية سوفوكليس – من خلال هذا الطرح – تكمن فى قدرته على الرمز وربط الحادث الدرامى على ساحة العرض بما هو واقع على الأرض. وفى هذا شئ من النبوة و استقراء التاريخ، فكما لم يفهم أويديبوس مغزى النبوءة الدلفية لم تع أثينا دروس التراجيديا السوفوكلية – بينما عهدت اليه بأعلى المناصب السياسية فيها – التى كانت بمثابة نبوءات لمصير مأساوى هو أقرب ما يكون لمصيرها[29].

الهوامش

1- Yaser I.A., *Πολιτικές προεκτάσεις στο έργο του Σοφοκλή: Αίας, Αντιγόνη, Φιλοκτήτης*, Διδακτορική διατριβή, Αριστοτέλειο Πανεπιστήμιο Θεσσαλονίκης, 2002.

باسم: نفس المؤلف

Yaser I.A. Ellethy, "Οιδίποδας Επί Κωλωνώ, ο ποιητής του 406 και ο θεατής του 401 π.Χ.", *Ελληνικά* 54 ν. 2, Εταιρεία Μακεδονικών Σπουδών, Θεσσαλονίκη 2004.

2 – لما كان المقام لا يتسع كى أتعرض فى هذا المبحث لعلاقة سوفوكليس خاصة و التراجيديا عامة بالسياسة فى أثينا القرن الخامس ق.م.، فاننى فى بحثى الأول السالف ذكره قد أفردت فصلا تقديميا مسهبا لمعالجة هذه المسألة، و تبيان أن المواطن الأثينى كانت لديه تلك الثقافة الديموقراطية التى تمكنه من ربط العمل المسرحى بالواقع السياسى. ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى بعض الأعمال الهامة – مثالا لا إجمالا – التى قد يكتمل بها إطلاع القارئ فيما يخص مدرسة النقد هذه:

Meier Ch., *The Political Art of Greek Tragedy*, Cambridge, 1993; Euben P. (ed.), *Greek Tragedy and Political Theory*, University of California Press, 1986; Knox B., *Oedipus at Thebes*, New Haven, London, 1966; Podlecki A., *The Political Background of Aeschylean Tragedy*, University of Michigan Press, 1966; Zuntz G., *The Political Plays of Euripides*, Manchester University Press, 1963.

3- أنظر

Ιακώβ Δ., *Ποιητική της Αρχαίας Ελληνικής Τραγωδίας*, Μορφωτικό Ίδρυμα Εθνικής Τραπέζης, Αθήνα, 1998, σ. 58.

4 - Shwartz J., "Human Action and Political Action in Oedipus Tyrannos" in *Greek Tragedy and Political Theory*, ed. Euben J., University of California Press, 1986, p. 196.

5- Ηρόδοτ. VI. 21. 2.

قارن كذلك Owen A., "The Date of the Electra of Sophocles" in *Greek Poetry and Life, Essays presented to Murray G. on his 70th birthday*, Oxford, 1936, p. 145: "… the plague of 430 was almost certainly in the mind of Sophocles

when he wrote Oedipus Tyrannos". Cameron A., *The Identity of Oedipus the King*, New York, 1968, p. xii.

6 - Demosth. xx.158. Bowra, C., *Sophoclean Tragedy*, Oxford University Press, 1944, p.174.

7 - قارن Di Benedetto V., *Sofocle*, La nuova Italia, 1983, p. 130

8- ترى Easterling أن وجود عنصر المواطنين فى التراجيديا الأثينية لابد وأن يؤخذ فى الإعتبار بوصفه عنصراً يميز العمل التراجيدى عن الموروث الملحمى. أنظر

Easterling P., "Constructing the Heroic" in *Greek Tragedy and the Historian*, ed. Pelling C., Oxford, 1997, pp. 28-29.

9- Knox B., "Sophocles and the Polis", *Entretiens sur L' Antiquite´ Classique* 24 (1982), p.17.

10- II. 65. ix.

11- للمزيد أنظر Bowra – العمل السابق – ص 188. وعن صورة الطاغية بمعناها المعاصر لدى الأثينيين زمان المسرحية أنظر

Vernant J., "From Oedipus to Periander: Lameness, Tyranny, Incest in Legend and History", *Arethusa* 15 (1982), pp. 33-34.

12 - VII.1, 5. X. 4.

13- أنظرتحديداً XIV-XVI . لا نحاول هنا أن نقيم الدليل على أن سوفوكليس كتب عمله "أويديبوس ملكاً" و فى عقله شخصية بركليز، فهذا أمر يعجز النقد الحديث عن ادراكه فى ظل ما هو متاح من مصادر. لكن التركيز كما سبق و أشرنا ينصب على ما قد كان من الممكن أن يقوم المشاهد الأثينى بإسقاطه على شخوص و أحداث معاصرة تربط بينها وبين شخوص تراجيدية قواسم مشتركة من حيث الأهمية و الأثر التاريخى. على الرغم من هذا فإن بعض الباحثين يربط بين حكم أويديبوس وإدارة بركليز لأثينا ، أنظر مثلاً:

Havelock E., "La Composizione Orale del Dramma Greco" in *Il Teatro Greco nell' Età di Pericle*, a cura di Molinari C., il Mulino, Bologna, 1994, p. 107: "Se pure é vero, come é stato suggerito, che come attraverso i *Sette* si

puo scorgere l' Atene del 480 d.c., cosي al di là dell' immagine di Edipo sembra fare la sua apparizione l' amministrazione di Pericle".

وعن معارضة تأويلات من هذا القبيل مع قبول تداعيات العمل وأثرها على المشاهد الأثينى أنظر

Cartledge P., "Deep Plays: Theatre as Process in Greek Civic Life" in *The Cambridge Companion to Greek Tragedy*, ed. Easterling P., Cambridge University Press, 1997, p. 31.

14-

II. 59. 1. "Μετὰ δὲ τὴν δευτέραν ἐσβολὴν τῶν Πελοποννησίων οἱ Ἀθηναῖοι, ὡς ἥ τε γῆ αὐτῶν ἐτέτμητο τὸ δεύτερον καὶ ἡ νόσος ἐπέκειτο ἅμα καὶ ὁ πόλεμος, ἠλλοίωντο τὰς γνώμας, καὶ τὸν μὲν Περικλέα ἐν αἰτίᾳ εἶχον ὡς πείσαντα σφᾶς πολεμεῖν καὶ δι' ἐκεῖνον ταῖς ξυμφοραῖς περιπεπτωκότες".

15-

II. 60.4 « εἷς δ' ἕκαστος τὰς ἐκείνης ἀδύνατος, πῶς οὐ χρὴ πάντας ἀμύνειν αὐτῇ, καὶ μὴ ὃ νῦν ὑμεῖς δρᾶτε· ταῖς κατ' οἶκον κακοπραγίαις ἐκπεπληγμένοι τοῦ κοινοῦ τῆς σωτηρίας ἀφίεσθε, καὶ ἐμέ τε τὸν παραινέσαντα πολεμεῖν καὶ ὑμᾶς αὐτοὺς οἳ ξυνέγνωτε δι' αἰτίας ἔχετε. καίτοι ἐμοὶ τοιούτῳ ἀνδρὶ ὀργίζεσθε ὃς οὐδενὸς ἥσσων οἴομαι εἶναι γνῶναί τε τὰ δέοντα καὶ ἑρμηνεῦσαι ταῦτα, φιλόπολίς τε καὶ χρημάτων κρείσσων. ὅ τε γὰρ γνοὺς καὶ μὴ σαφῶς διδάξας ἐν ἴσῳ καὶ εἰ μὴ ἐνεθυμήθη· ὅ τε ἔχων ἀμφότερα, τῇ δὲ πόλει δύσνους, οὐκ ἂν ὁμοίως τι οἰκείως φράζοι· προσόντος δὲ καὶ τοῦδε, χρήμασι δὲ νικωμένου, τὰ ξύμπαντα τούτου ἑνὸς ἂν πωλοῖτο.»

16- IV.4.

17- أنظر

Cameron, op. cit.: "The Oedipus is very far from being art for art's sake".

18- قارن:

Ehrenberg V., *Sophocles and Pericles*, Basil Blackwell, Oxford, 1954., p. 140: "Sophocles and Pericles were on friendly terms, but not friends. They would occasionally work together in the service of the city which they both loved so much. They were of one generation, and therefore had much in common, though perhaps more that divided them".

19- 872 -879. يقرأ Bowra – المرجع السابق – ص 165، الأبيات فى إطار خوف الجوقة من تحول أويديبوس إلى طاغية بالمعنى الحديث للفظة. قارن – نفسه – ص 186. يتبنى Shwartz – المرجع السابق – ص 193 – الرأى نفسه. قارن كذلك:

White M., “Greek Tyranny”, Phoenix 9, 1955، p. 3.

20-

Περικλῆς, XII.2: « καὶ δοκεῖ δεινὴν ὕβριν ἡ Ἑλλὰς ὑβρίζεσθαι καὶ τυραννεῖσθαι περιφανῶς, ὁρῶσα τοῖς εἰσφερομένοις ὑπ' αὐτῆς ἀναγκαίως πρὸς τὸν πόλεμον ἡμᾶς τὴν πόλιν καταχρυσοῦντας καὶ καλλωπίζοντας ὥσπερ ἀλαζόνα γυναῖκα, περιαπτομένην λίθους πολυτελεῖς καὶ ἀγάλματα καὶ ναοὺς χιλιοταλάντους».

21-

XVI.1: «Καίτοι τὴν δύναμιν αὐτοῦ σαφῶς μὲν ὁ Θουκυδίδης διηγεῖται, κακοήθως δὲ παρεμφαίνουσιν οἱ κωμικοί, Πεισιστρατίδας μὲν νέους τοὺς περὶ αὐτὸν ἑταίρους καλοῦντες, αὐτὸν δ' ἀπομόσαι μὴ τυραννήσειν κελεύοντες, ὡς ἀσυμμέτρου πρὸς δημοκρατίαν καὶ βαρυτέρας περὶ αὐτὸν οὔσης ὑπεροχῆς.»

22- Oedipus at Thebes, op.cit., p.107.

23- Rocco C., Tragedy and Enlightenment, Athenian Political Thought and the Dilemmas of Modernity, University of California Press, 1997, pp.41-42.

24- Podlecki A., Perikles and His Circle, London & New York, 1998, pp. 122-3.

أنظر كذلكWhite, op.cit., pp. 3-4

25- قارن

Ehrenberg V., op.cit., p. 14: “In his old age, Sophocles realized that this was not the last word, the redemption could put an end to suffering; but the reconciliation with fate which ends Philoctetes’ suffering and brings peace to the dying Oedipus, was alien to the poet’s mind at the time when he wrote *Antigone* and *Oedipus Tyrannus*”.

26- أنظر

Hamilton J., “Antigone: Kinship, Justice and the Polis” in Myth and the Polis, ed. Pozzi D. & Wickersham J., Cornell University Press, 1991. p. 89.

حيث يرى الباحث أن تراجيدية الشخوص السياسية الأسطورية فى أعمال سوفوكليس تمس ضمير الديموقراطية الأثينية.

27- أنظر Shwartz – المرجع السابق – صفحات 185 -186:

"When the chorus calls Oedipus a model or example – a paradeigma (1193) – there can be no doubt that Sophocles means that Oedipus's terrible discovery is a lesson that the Athenians should bear in mind when they leave the theatre to conduct their lives and the life of their city".

28- من المعروف أن سوفوكليس كان أحد أعضاء مجلس المستشارين العشرة πρόβουλοι الذى شكل فى أعقاب هزيمة صقلية (ثوكيديديس 8. 1. 3) والذى كان أشبه مايكون بحكومة إنقاذ وطنى بمصطلحنا الحديث. و لعله من المفيد أن نشير إلى أن تاريخ عمله فيلوكتيتيس فى 409 ق.م. هو الوحيد المؤكد من بين أعماله الباقية. أنظر:

Arist., *Rhet.*, III. 18. 1419a 25. Radt S., *Tagicorum Graecorum Fragmenta* (=*TrGF*), vol. 4, Sophocles, Vandenhoeck & Ruprecht, G.ttingen, 1977, T27.

29- عن نبوءة سوفوكليس أنظر

Whitman C., *Sophocles, A Study in Heroic Humanism*, Harvard University Press, 1951, p. 239: "to conceive a great individual a moral landmark and then view him historically, is a kind of prophecy, and in this sense Sophocles was a prophet".

لا أجد تبريرا لتأويل الباحثة Zeitlin الذى يرى فى صورة طيبة فى العمل نموذجا سلبيا وطرحا لكل ما ينافى صورة أثينا. أنظر تحديدا:

Zeitlin F., "Thebes: Theater of Self and Society in Athenian Drama" in Greek Tragedy and Political Theory, ed. Euben J., University of California Press, 1986, p. 102